إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد التاسع – ربيع ١٣٩٢ش/ آذار ٢٠١٣م
صص ٨٨ ـ ٦٥

العربية ومكانتها بين اللغات الساميَّة؛ دراسة وتقويم

محمدصالح شريف عسكرى*

الملخص

يتناول هذا المقال قصدية اختيار اللغة العربية، باعتبارها أفضل اللغات الحية، وأكمل اللغات االساميَّة، لتبليغ رسالة الإسلام، وتنزيل كتاب الله العزيز، بهذه اللغة، من خلال استعراض آراء علماء اللغة، فى اللغات السامية، وفروعها، وموطن شعوبها، والأطوار التى مرت بها هذه اللغات، من ضعف وقوة، والعلاقات التى تربط بعضها ببعض، وما بقى منها قائماً، حتى الآن، وما اندثر، كما يتحدث المقال، بمقدار ما يتسع له المجال، عن ما يميز العربية عن الساميات، فى الأصول والاشتقاقات وتنوع المفردات، وطرائق الكلام، وأدوات التعبير عن ألطف الأمور وأدق القضايا؛ للوصول إلى بيان تفوق العربية علي غيرها بعد أن أصبحت أكمل أخواتها الساميَّة مضموناً، وأقدرها أداءً للمعانى؛ الأمر الذى جعلها أهلاً لاحتضان كتاب الله العزيز، وكلام نبيه الكريم(ص)، فنالت بهذه المكانة المتميزة من التشريف والشأن مالم تنله لغة أخري من لغات البشر. كما حاول المقال أن يجعل القارئ يدرك من ثنايا البحث، بعد مشاهدة انحسار غير العربية، وبقاء الأخيرة؛ أن اختيار أكمل اللغات، أى العربية، لإبلاغ أكمل الرسالات لم يكن عملاً اعتباطياً، ودون قصد من الشارع الحكيم.

الكلمات الدليلية: قصدية اللغة، اللغة العربية، إمتياز العربية، الساميَّة.

---

*. أستاذ مشارک فى جامعة الخوارزمى، طهران، إيران. Ms_shaskari@hotmail.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٣/٢٠ش تاريخ القبول: ١٣٩٢/٤/١٠ش

المقدمة

تنتمى اللغة العربية، علي رأى علماء اللغة المعاصرين، لمجموعة من اللغات، التى أطلقوا عليها اسم اللغات الساميَّة، تعويلاً علي وجود خصائص مشتركة، بين هذه اللغات، سوغت للعلماء تصنيفها فى أسرة لغوية واحدة. وقد تواصل الحديث، عن هذه المجموعة، فى الدراسات الحديثة، خاصة الساميَّة منها، وتعدَّد القول فيها، وتشعَّب الكلامُ حول حقيقتها وموطنها وشعوبها ولغاتها، وموقع العربية منها. وقد أدلى كلٌّ باحث من الشرقيين والغربيين، بدلوه فى هذا المضمار، وانتصر لوجهة، دون أخري، فى سجال صعب، وتقابل وتخبط واضطراب فى الآراء. غير أنَّ الذى يلاحظه المتتبع لأهم المصادر التى تناولت الحديث عن اللغات الساميَّة، منذ الدراسات التى نشرها الغربيون، أمثال: جويدى، نولدكه وولفنسون أو بروكلمان وموسكاتى، وغيرهم من الباحثين الغربيين، أو الشرقيين: أمثال لويس عوض، وجرجى زيدان، وعلى عبد الواحد وافى، وغازى طليمات وحسن ظاظا أو غيرهم فى مؤلفاتهم التى وردت بعضها فى مسرد المصادر، يلاحظ المتتبع أنَّ هؤلاء جميعا لم يتناولوا موضوع اكتمال اللغة العربية وامتيازها علي سائر أخواتها السامية، ولم يطرقوا هذا الهدف؛ ولم يصرحوا – عن قصد أو دون قصد – بما تمتاز به اللغة العربية علي أخواتها الساميَّات، وما نجم عن امتياز العربية وتطورها واكتمالها، من مقدرة فائقة علي أداء المعانى والتعبير عن خلجات النفس الإنسانية، وحاجات الإنسان: الفكرية والعاطفية؛ والتى كان من ثمارها، تشرفها باحتضان القرآن الكريم الذى نزل بهذه اللغة، وتسنمها أرقي مراتب الكمال، وقد حاول هذا المقال أن يطرق هذا الموضوع ويعالجه بما وسعه من الأدلة والأقوال المتناثرة فى مضانها، وبمقدار ما سمحت به مساحة المقال؛ تعويلاً علي المنهج التاريخى، والواقع الفعلى للعربية وأخواتها، وليفتح بذلك آفاق القول؛ لدراسات لاحقةٍ، أكثر سعة وتفصيلاً؛ تأسيساً علي أنَّ نزول أعظم كتاب سماوى، وإرسال خاتم الرسل (ص) بهذه اللغة، مبلغاً ومبشراً ونذيراً، لم يكن عملاً اعتباطياً، أو ارتجالياً، وأنَّ قصدية هذا الاختيار لا يبعد ان يكون أحد أوجه إعجاز كتاب الله العزيز. وهذه هى الفرضية التى حاول المقال إثباتها.

اللغات الساميَّة: تعريف وتأريخ

تعريفها

تطلق "اللغات الساميَّة" علي جملة من اللغات التى كانت شائعة منذ أزمان بعيدة فى بلاد آسيا وأفريقيا، سواء منها ما عفت آثاره، كالأكادية (الآشورية- البابلية) والسبئية وغيرهما، أو ما لايزال باقياً إلى الآن، كالعربية، والعبرية، والسريانية. (ولفنسون، لاتا: ٩؛ نولدكه، ١٩٦٤م: ٨؛ موسكاتى وآخرون،١٩٩٣م: ١٣)

مصطلح الساميَّة

وأول من استعمل هذا الاصطلاح، هو العالم النمساوى شلوتسر Schlozer فى أبحاثه، وتحقيقاته فى تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٧٨١م. (نولدكه، ١٩٦٤م: ٨؛ ولنفسون، لاتا: ٩؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ١١)، اعتماداً علي جدول تقسيم الشعوب، الوارد فى التوراة. إذ جاء فيه: «وهذه مواليد بنى سام وحام ويافث و وِلدَ لهم بنون، بعد الطوفان ... وسام أبو كل بنى عابر، أخو يافث الكبير، وِلدَ له أيضاً بنون. بنو سام، عيلام، وآشور، وأرفكشاد، ولود وآرام.» (الكتاب المقدس، ١٩٠٧م: سفر التكوين/الاصحاح العاشر: ١٦)

أمَّا التأريخ

فهذا الجدول - حسب رأى علماء اللغة - أقدم تقسيم عن أنساب الأمم الساميَّة، وهو كما يبدو يقسم الأسرة البشرية إلى سام، وحام، ويافث. (ولنفسون، لاتا:١٠؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ١١)

ويفترض هذا التقسيم أنَّ أبناء سام انتشروا فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، أمَّا أبناء حام فهم أصل المتحدثين باللغات الإفريقية، وأمَّا أبناء يافث فهم أصل من تحدَّث بعدد من اللغات فى أوربا وآسيا. وهذا التصنيف الأساسى لم يكن يحمل فى طياته أى هرمية أو تقابل بين اللغات، فقد كانت المسافة بينها جنينية، كالمسافة بين الأقارب. (فرستيغ، ٢٠٠٣م: ١٤)

ومن العلماء، من خالف هذه التسمية،كما خالف إدراج بعض الشعوب فى هذا الجدول، ذلک لأنَّ العلم الحديث، يفهم منها الآن، شيئاً يختلف إلى حد ما، عمَّا فهمه

جدول الشـعوب فى التوراة؛ لأنَّه بنى تقسيمه علي اعتبارات سياسية، وحدود جغرافية فحسب؛ ولذلک جعل العيلاميين Elymeens، واللوديين Lydiens من أبناء سام؛ لأنهما كانا من رعايا الدولة الآشـورية، فى حين لا توجد بين هذين الشعبين قرابة من ناحية، كمـا أنـه ليس بينها وبين الآشـوريين قرابة من ناحية أخري. كمـا جعل الفينقيين من أبناء حام؛ بسبب صلاتهم السياسية بالمصريين، علي الرغم من أنهم أقرب الشعوب إلى العبريين، (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٢٥) كما لم يقدم لنا مؤلف جدول الشـعوب، حسب – سفرالتكوين، الاصحاح/١٠– صورة واضحة عن العلاقات بين شعوب جنوبى الجزيرة العربية وشعوب الحبشة.

وخالف هذا التقسيم أيضاً، نخبة من الغربيين، أمثال تيودور نولدكه (اللغات السامية، ١٩٦٤م: ٨)، وكارل هيكر "مونستر"، تعويلا علي ما جاء فى الاصحاح العاشر، (ص١٦) فمـا بعده، وقـال: «والعرب أنفسـهم لم يُذكروا علي وجه التحديـد، ولكن ذكرت مثلاً الأقاليم العربية الجنوبية، مثل حضرموت وسـبأ.» (فيشـر، ٢٠٠٢م: ٤٤،٢١–٤٥)، كما خالف، هذا التقسـيم نخبة من الشـرقيين، أمثال عبد الواحد وافى، (فقه اللغة، لاتا: ٢)، وكمال ربحى. (اللغة العبرية، ١٩٦٣م: ٦–٧)

ويلاحـظ الباحث، من خلال تضارب الآراء واختـلاف النظرات، أنَّ التخبط يلف مسـألة تقسيم الشـعوب السـاميَّة، فأقدم المصادر عند الغربيين هو التوراة لا ينجو من النقد والتشـكيک، وكذلک الآرء التى اسـتخلصت من المصادر الأخري، لم تجد القبول المطلـق. ولا زال البحـث فى هذا المضمـار، وغيره مما يرتبط بالتاريـخ المغرق بالقدم، بحاجة ماسـة للتنقيب والسبر الدقيق. ولا يزال السجال الحاد قائماً بين فرضيتين، تري إحداهما: أنَّ التقارب التاريخى بين الشـعوب، يمكن الكشـف عنه، عن طريق العواطف والمشـاعر والميول المختلفة فى العلاقات والمأكل والمشـرب، خاصة بين الشـعوب التى تسـكن فى إقليم واحد، ومناطق متقاربة، بينما تري الأخري، أنَّ التقارب التاريخى بين الشعوب، يمكن الكشـف عنه، من خلال لغات الشعوب، وما تحملها مفرداتها وأساليب كلامها من تشابه واختلاف، وقد عنى بهذه الفرضية الباحثون فى مجال فقه اللغة المقارن. ويبدو من خلال الأبحاث الميدانية اللغوية فى بلاد آسيا وغيرها، ومن خلال الدراسات

المقارنة، أنَّ أنصار الفرضية الثانية استطاعوا أنْ يحرزوا شيئاً من التقدم. (للتوسع: ظاظا، ١٩٩٠م: ١٠؛ والسامرائى، ١٩٨٥م: ٩)

الساميَّة وعلماء العربية

ومن المعلوم، أنَّ الصلات القائمة، بين اللغات الساميَّة المختلفة، من جهة واللغة العربية من جهة أخري، كانت معروفة، قبل أيام "شلوتسر" بزمن طويل، عند علماء العربية، أمثال الخليل ابن أحمد الفراهيدى؛ فقد أشار الخليل فى كتابه العين إلى العلاقة بين الكنعانية والعربية وقال: «وكنعان بن سام بن نوح، إليه يُنسب الكنعانيون، وكانوا يتكلموك بلغة تقارب العربية.» (١٤٠٥ق: ٢٠٥/١) وأوضح ابن حزم الأندلسى، أنَّ من تدبَّر العربيَّة والعبريَّة والسريانيَّة، أيقن أنَّ اختلافها، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس، علي طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وإنَّها لغة واحدة فى الأصل (الإحكام فى أصول الأحكام، ١٣٤٥ق: ٣/١)، كما اهتدي إلى ذلک كثير من علماء العربية المعاصرين. (السامرائى، ١٩٨٥م: ١٥)

ومجموعة اللغات الساميَّة نفسها، لم تكن قد تحدَّدت، وتميَّزت عند قدامي المحققين، بأنها ساميَّة، وقدكان يشار إلى هذه اللغات، كغيرها من لغات آسيا، علي أنَّها، بوجه عام، لغات شرقية. (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ١٤)

وإذا كانت الصلات بين هذه الشعوب قد تبيَّنت، عند القدامي من علماء المسلمين، وأصبحت أكثر وضوحاً عند المعاصرين، فما السرُّ وراء هذه الصلات، وما العلة فى التداخل الموجود بين لغات شعوبها؟ يري الباحث أنَّ حديث المواطن الآتى، يكشف جانباً من السؤال، فإلى ذلک:

موطن اللغات الساميَّة

والمناطق التى انتشرت فيها اللغات الساميَّة، خلال الأزمنة القديمة، مِنْ بلاد آسيا الغربية (من الشرق إلى الغرب)، كما حدَّدها علماء الساميات، هى الآتية:

«ما بين النهرين Mesopotamia، وسورية-فلسطين Syria-Palestine، وشبه الجزيرة العربية Arabia. ... وأثيوبيةEthiopia ، فيؤلف ما بين النهرين، وسورية - فلسطين، والجزيرة العربية وأثيوبية، لذلک، موطن اللغات الساميَّة القديم. ولم تنتشر

وراء هذه المنطقة، إلا نتيجة تطورات ثانوية، كالهجرة والاستيطان Colonization، أو الفتح Conquest.» (السابق، أيضاً: فرستيغ، ٢٠٠٣م: ٢١)

وفى أقصي الغرب من القارة الآسيوية، الذى يسمي أحياناً بالشرق الأدنى، وتساهلاً بالشرق الأوسط، عاش أقوامٌ تتقاربُ لغاتهم، وقامت لهم حضارات متعاصرة، أو متعاقبة، هم الذين أطلق عليهم اسم الساميين. (ظاظا، ١٩٩٠م: ٥)

ويطلق الآن لقب الساميين، فى الدراسات الساميَّة، علي الشعوب الآرامية، والكنعانية (الفنيقية والعبرية)، والعربية، اليمنية، والبابلية- الآشورية، وما انحدر منها من شعوب. (وافى، لاتا: ٢-٣)

ولاتوجد كتلة من الأمم، ترتبط لغاتها، بعضها ببعض، كالارتباط الذى كان بين اللغات الساميَّة. (ولنفسون، لاتا: ١٠؛ موسكاتى، لاتا: ٤٤)

ولمَّا تبيَّن لعلماء اللغة، وجود هذا الارتباط، وهذه العلاقة المتينة، بين لغات الشعوب الساميَّة، ساقتهم هذه العلاقة، إلى الاعتقاد بوجود أصل واحد، لجميع اللغات الساميَّة، وأنَّ هذه اللغه الأصلية، كانت منتشرة فى منطقة جغرافية واسعة، وأنَّ لهجات مختلفه، نجمت من هذه اللغة الأصلية، غير أنَّها لم تكن ظاهرة ومخالفة للأصل، إلا بعد انتشار قبائل هذه الأسرة الساميَّة الكبرى فى مناطق شتَّى، وهجرت بعضها من موطنها الأصلى، ثم بَدَتْ تاثيرات البيئة الجديدة فى الألسنة، فاخذت تبرز وتنمو حتى أصبحت تلك اللهجات مغايرة، كأنَّ كلاً منها لغة مستقلة. (ولنفسون، لاتا: ١١)

موطن الساميين

وتسائل العلماء، إذا كان لهذه الشعوب موطن أصلى، انتشرت منه، فأين كان هذا الموطن الأصلى. (بروكلمان، ١٩٧٧م: ١٢؛ ولفنسون، لاتا: ١١)

إنَّ المهد الجغرافى الأول للغة الساميَّة، بحثٌ حيَّر العلماء. (ظاظا، ١٩٩٠م : ١١)، وقد ذهبوا فيه مذاهب شتَّى، ولم يصلوا بعدُ بشأنه إلى رأى يقينى. وأهم ما قيل بهذا الصدد يندرج فى ستة آراء:

١- أرض الحبشة: يذهب بعض العلماء، الى أنَّ الموطن الأصلى للساميين، هى بلاد الحبشة، ومنها نزحوا إلى القسم الجنوبى، ببلاد العرب عن طريق باب المندب، ومن هذا

القسم انتشروا فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية. وصاحب هذا الرأى المستشرق نولدكه، الذى يقول: «والقرابة الموجودة بين اللغتين: الساميَّة والحاميَّة، تدعو إلى الاعتقاد بأنَّ الموطن الأصلى للساميين، كان فى إفريقيا.» (اللغات السامية، ١٩٦٤م: ٢١-٢٢) غير أنه يعود فيذكر، أنَّ نظريته تلك، ليست إلا فرضاً قابلا للنقض. وخالف هذا الرأى وافى (فقه، لاتا: ٦) وآخرون قائلين: «كيف اختفت من إفريقيا إذن، جميع اللغات الساميَّة، بحيث لا تعود إلى الظهور، إلا فى بعض المناطق الفينيقية، وبعد الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى؟» (ظاظا، ١٩٩٠م: ١٤؛ أيضاً: عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٨)

٢- شمال أفريقيا: ويذهب آخرون، إلى أنَّ الموطن الأول للساميين، كان شمال إفريقيا، ومنه نزحوا إلى آسيا عن طريق برزخ السويس. (وافى، لاتا: ٦)

٣- حدود أرمينيا وكردستان: ويذهب القائلون بهذا الرأى إلى أنَّ الموطن الأصلى يقع علي حدود أرمينيا وكردستان.

ويعتمد أصحاب هذا الرأى علي أدلة لغوية ودينية توراتية. منهم المستشرق الفرنسى: (رينان) وغيره، اعتماداً علي ما جاء فى سفر التكوين (الاصحاح الثامن/٤) من أن سفينة نوح رَسَتْ علي جبل قريب من ناحية أرفكشاد، وهى تقع علي حدود أرمينيا وكردستان. (نولدكه، ١٩٦٤م: ٢٢؛ أيضاً: الحموى الرومى، لاتا: ١٦/٠١)

ويترتب علي هذا الرأى - حسب رأى الباحثين- أن تكون مرتفعات كردستان، مهداً للإنسانية كلها، لا للساميين وحدهم، حيث نزل من هذه السفينة فى هذا المكان المفترض: نوح وأبناؤه الثلاثة: سام وحام ويافث. (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٩؛ ظاظا، ١٩٩٠م: ٩)

ويذهب نولدكه (اللغات الساميَّة، ١٩٦٤م: ٢٣) إلى أنه «رأى خيالى تماما»، هذا إلى أنه يتعارض تماماً مع رأى آخر، فى سفر التكوين (الاصحاح الحادى عشر/١) الذى يرجع إلى مصادر أخري، ويذكر أنَّ كلَّ الشعوب، ومن بينها الساميون أيضاً، قد انحدروا أصلا من بابل.

ويعتقد عالم اللغويات المصرى، الدكتورعلى عبد الواحد وافى (فقه، لاتا: ٦)، أنَّ الآراء الثلاثة السابقة هى أضعف الآراء، التى قيلت بهذا الصدد؛ إذ لم يقدم أصحابها بين يدى مذهبهم دليلاً يعتد به.

٤- جنوب العراق

تنقسم بلاد العراق، من الوجهة الجغرافية، إلى منطقة شمالية نجدية، ومنطقة جنوبية تهاميَّة، فأمَّا المنطقة الجنوبية، فكانت مسكونة، مِن أقدم الأزمنة التاريخية بقبائل سومرية، تضاربت الآراء حول زمن هجرتها إلى هذه المنطقة، ومواطنها الأولى. ويري بعض الباحثين، أنَّ العنصر السامى فى العراق كان موجوداً، قبل وصول السومريين إليه. (الأحمد، ١٩٧٥م: ٤١-٤٦)

وفى هذه المنطقة الجنوبية، من بلاد العراق، نشأت الحضارة السومرية، ونمتْ نمواً عظيماً، وامتد فيها العمران المزدهر، الذى كان بعد ذلک أساساً لحضارة القبائل الساميَّة، قبل الألف الثالث ق.م، وكونت مُلكا عظيما، فى منطقة بابل. (ولنفسون، لاتا: ٢٨؛ الأحمد، ١٩٧٥م: ٤٣- ٤٥، فما بعد)

أمَّا المنطقة الشمالية، فكانت موطن القبائل الآشورية. (موسكاتى، لاتا: ٦٩-٧١)، التى اتخذت مدينة أشور Assur قاعدة لدولتها.

وقد قال بهذا الرأى، إرنست رينان، وفرانسوا لنورمان، وفريتز هومل، وبيترز، كما كان من أوائل القائلين به، الإيطالى إغناطيوس جويدى، فى بحث نشره فى روما بعنوان "مهد الشعوب الساميَّة" سنة ١٨٧٨-١٨٧٩م. قال فيه:

«إن المهد الأصلى للأمم الساميَّة، كان فى نواحى جنوب العراق، علي نهر الفرات، وقد سرد عدداً من الكلمات المألوفة، فى جميع اللغات السامية عن العمران والحيوان والنبات، وقال إنَّ أول من استعملها، هى أمم تلک المنطقة، ثم أخذها عنهم جميع الساميين.» (ولفنسون، لاتا: ١١؛ ظاظا، ١٩٩٠م: ١٢)

وهذه الحجة كما تبدو لغوية، وقد رفضها نولدكه، وآخرون. (هلال، ٢٠٠٤م: ٦٧،٧٥؛ عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٤١)

٥- بلاد كنعان، فى شمال سورية: وكانت تسمي فى النقوش القديمة، ببلاد آمورو. وذهب إلى هذا الرأى المستشرق الأمريكى كلاى، وغيره. ومن الأدلة التى قدمها أصحاب هذا الرأى، وجود مقاربة فكرية بين الأساطير العراقية، والأساطير الفينيقية، وأساطير الساميين، فى بلاد سورية. ومن الأدلة، أيضا، وجود مَدنيَّة سحيقة للساميين،

فى البلاد السورية القديمة، علي حين أنَّ بلاد العراق مثلاً، التى يري أصحاب المذهب الرابع أنَّها المهد الأول للساميين، كان يسكنها من قبلهم الشعب السومرى، وكانت له فيها مدنية زاهرة قبل مدنيتهم، وقد نزحوا إليها، فى عصر كانت فيه بلاد سوريا القديمة، آهلة بأمم ساميَّة، ذات مدنية عريقة. وخالف هذا الرأى عددٌ من الباحثين. (وافى، لاتا: ٧؛ ظاظا، ١٩٩٠م: ١٤)

٦- جزيرة العرب

يري بعض العلماء، أنَّ المهد الأول للساميين، كان القسم الجنوبى الغربى، من شبه جزيرة العرب (بلاد الحجاز ونجد واليمن وما إلى ذلك). وقد مال إلى هذا الرأى عددٌ، من قدامي المستشرقين ومُحْدَثيهم، وعلي رأسهم العلامتان رينان الفرنسى، وولفنسون، وبروكلمان الألمانى، ويذهب بروكلمان إلى «أنَّ الجزيرة العربية هى المكان، الذى يصلح لأن يكون مهد الساميين الأول.» (فقه، ١٩٧٧م: ١٢) ويقول ولفنسون: «والذى يمكننا أن نجزم به هو أنَّ أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأُمم الساميَّة، التى علمنا أخبارها، وأسماءها، كانت من نزوح جموع ساميَّة، من أرض الجزيرة، إلى بلدان المعمورة الدانية، والقاصية، فى عصور مختلفة، فأقدم هجرة ساميَّة، اتجهت نحو بابل كانت، من ناحية الجزيرة.» (تاريخ اللغات السامية، لاتا: ١٢-١٣)

ويعتقد وافى، أنَّ هذا هو أصح الآراء وأقواها سنداً، وأكثرها اتفاقاً، مع آثار هذه الأمم، وحقائق التاريخ؛ لوجود أدلة تاريخية، وجغرافية ـ ولغوية. (فقه، لاتا: ٧)

ووافق هذا المعتقد كلٌّ من، غازى مختار طليمات، (فى علم اللغه، ٢٠٠٠م: ٦٨-٦٩) وعالم الساميات، سبتينو موسكاتى (الحضارات الساميه القديمه، لاتا: ٤٩-٥٤)، وحسن ظاظا (الساميون ولغاتهم، ١٩٩٠م: ٨٧)، ورمضان عبد التواب. (فصول، ١٩٩٩م: ٤١)

تقسيم اللغات الساميَّة: (من الساميَّة إلى العربية)

يفترض الباحثون، من خلال الدراسات اللغوية المقارنة، والاكتشافات التى قاموا بها، أنَّه فى حوالى الألفية الثالثة، قبل الميلاد، حدث انفصال بين اللغات الساميَّة الشمالية الشرقية (الأكدية، والتى تفرعت بعد ذلك بدورها لقسمين، هما البابلية والآشورية)، وباقى اللغات الساميَّة، وفى حوالى الألفية الثانية، قبل الميلاد حدث انقسام آخر فى

المجموعة الغربية من اللغات الساميَّة، وكان الانقسام بين مجموعة الساميَّات الشمالية الغربية، والمجموعة الجنوبية الغربية. وفى حوالى الألفية الأولى، قبل الميلاد، انقسمت المجموعة الشمالية الغربية، إلى الكنعانية والآرامية، وانقسمت المجموعة الجنوبية الغربية، إلى العربية والعربية الجنوبية، والأثيوبية. ولكن الاكتشافات الحديثة، غيرت تلك الصورة تغييراً كبيراً، وخاصة اكتشاف المجموعة الأوجريتية (الأوغاريتية) فى عام ١٩٢٩م، والعبلية عام ١٩٧٤م، وكلتا اللغتين الآن تعتبر من المجموعة الشمالية الغربية. (فرستيغ، ٢٠٠٣م: ٢٤)

وطبيعة الاكتشافات الاوغاريتية التى حملت معلومات جديدة عن الحروف وأنواعها، والكلمات وتراكيبها، واللغة وأصولها، ساقت الباحثين إلى تكوين آراء جديدة حول تقسيمات اللغات، وموطنها.

فاللغات الساميَّة، وفقاً للاعتقاد السائد، تنقسم إلى ثلاثة فروع أساسيَّة هى: (١) اللغات الساميَّة الشمالية (ما بين النهرين). (٢) اللغات الساميَّة الشمالية الغربية (سورية- فلسطين). (٣) اللغات الساميَّة الجنوبية الغربية (أو الجنوبية) (الجزيرة العربية). (ولفنسون، لاتا: ٢٤)

أ- اللغات الساميَّة الشمالية الشرقية: ويطلق عليها المحدثون، من علماء اللغة اسم (اللغات الأكادية) نسبةً إلى أكَّاد Akkad، واشتق اسمها من مدينة "أكَّاد Akkad" التى بناها (سرجون، Sargon، ٢٣٥٠-٢٢٩٤ ق.م) فى الجزء الشمالى من أرض بابل، لتكون عاصمة لدولته، وهى أول دولة ساميَّة، شهدتها أرض الرافدين، أو كلدة كما يسميها الساميون، (وافى، لاتا: ٢٠) أو (اللغات البابلية-الآشورية) نسبة إلى منطقتى بابل وآشور. (الأنطاكى، لاتا: ٦٨)

تطلق جمهرة الباحثين، علي لهجات هاتين الطائفتين اسم (البابلية- الاشورية)، أو(اللهجات الأكدية)، وأحياناً، يكتفي بعض الباحثين بإطلاق التسمية المقصورة علي فريق، دون الآخر، فيُسَمُّون لهجاتها كلها: اللهجات البابلية، حين كانت الدولة البابلية مزدهرة (فى المدة ٣٦٠٠ ق.م -٢٠٠٠ ق.م) ويُسمُّونها (اللهجات الآشورية) حين كانت الدولة الآشورية مزدهرة (فى المدة من سنة ٢٠٠٠ ق.م-٥٠٠ ق.م). (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٠)

وحلت هذه اللغات[الأكادية]محل اللغة السومرية، التى اندثرت حوالى ٢٠٠٠ ق.م.

وكانت لغة هؤلاء الأكاديين الساميين النازحين، إلى هذه المنطقة، خاضعة لنفوذ لغة السومريين حتى حوالى ٢٠٠٠ ق.م، «فقد اقتبسوا عن السومريين طائفة كبيرة من مفردات لغتهم.» (وافى، لاتا: ٢٥)، كما استخدموا خطهم، نحو ثلاثة آلاف سنة، علي أقل تقدير، أى إلى نحو قرن واحد، قبل الميلاد. (ولفنسون، لاتا: ٣٦؛ فيشر، ٢٠٠٢م: ٢٤)

وبعدها تميزت الأكدية، إلى البابلية، والآشورية:

البابلية: وهى لهجة الجزء الجنوبى من المنطقة، وتشتمل علي البابلية القديمة، (حوالى ٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠ ق. م)، مع عدة اختلافات لهجية، والبابلية المتوسطة، (حوالى١٥٠٠ أي ١٠٠٠ ق.م)، والبابلية الجديدة، (حوالى ١٠٠٠ ق.م إلى بدء العهد المسيحى). وأكثر البابلية حداثة، وتدعي البابلية المتأخرة، تبدأ من (حوالى ٦٠٠ ق.م). و تَتَّسم بوجود ألفاظ آرامية فيها.

أمَّا الآشورية، وهى لهجة الجزء الشمالى من المنطقة، وتشتمل علي الآشورية القديمة (حوالى ٢٠٠٠ ق.م إلى ١٥٠٠ ق.م)، والآشورية المتوسطة (حوالى ١٥٠٠ ق.م إلى ١٠٠٠ ق.م)، والآشورية الجديدة (حوالى ١٠٠٠ق.م إلى ٦٠٠ ق. م)، وقد تأثرت بالآرامية فى طورها الأخير. (وافى، لاتا: ٢٨-٢٩)

ب – الساميَّة الشمالية الغربية

ويحتوى هذا الفرع من اللغات، علي لغات مشكوك فيها، ولغات جري التثبت منها، بوجه عام، طبقاً للنقوش التى اكتشفت (من الألف الثانى قبل الميلاد). (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢١-٢٢)، وتضم (الكنعانية والآرامية):

١ – اللغة الكنعانية وفروعها (Canaanite)

يطلق لفظا كنعان والكنعانيين علي المنطقة السورية-الفلسطينية باسرها، وعلي سكانها، كما تعنى الكنعانية: المظاهر اللغوية غير الآرامية، فى الارض السورية-الفلسطينية، من نهاية الألف الثانى قبل الميلاد فما بعده. (موسكاتى، لاتا: ١١٤)

والكنعانيون طائفة سامية خرجت من الجزيرة العربية، واستوطنت الساحل الشمالى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، فى سورية وفلسطين .

ويقال: إنهم خرجوا من الجزيرة، قبل القرن السابع والعشرين، أو الخامس والعشرين،

قبل الميلاد، علي خلاف بين المؤرخين، وقد امتد نفوذهم إلى الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، وأسسوا لهم مملكة زاهرة فى أرض كنعان، قبل أن ينزح الآراميون إليها بأكثر من ألف سنة. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٢)

وتقسم الكنعانية إلى شمالية، وجنوبية:

أ – الكنعانية الشمالية، وتمثلها اللغة الأوغاريتية، وهى لغة النصوص المكتشفة عام ١٩٢٩م، وعام ١٩٥٣م فى منطقة أوغاريت(Ugarit)شمالى اللاذقية قرب (رأس شمرة، أو شمرا حالياً). (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٢٧؛ موسكاتى، لاتا: ١١٦)، علي الساحل السورى للبحر المتوسط، من القرن الرابع عشر، و الخامس عشر، قبل الميلاد.

ولغة هذه النصوص المكتشفة تشابه اللغة الأكادية، إذ كتبت بالخط المسمارى، الذى يسير علي النظام الأبجدى، خلافاً للأكادية، التى يسير فيها علي النظام المقطعى. (قدورة، ١٩٩٩م: ٥٩؛ الصالح، ١٩٧٦م: ٥٠)

وفى هذه المنطقة ظهرت الكتابة الأبجدية، فى الألف الثانى قبل الميلاد. (بيطار، ١٩٩٧م: ٣٩) وعنها أخذ العالم الكتابة الأبجدية. (الصالح، ١٩٧٦م: ٥٠)

ب – الكنعانية الجنوبية، وفروعها:

اللغة العبرية، وقد اختلف فى أصل اللغة العبرية، هل هى ساميَّة، أو لغة أخري، تأثرت بالفينيقية، أو أن لغتهم اندثرت، وحلَّ محلَّها اللسان الكنعانى، فهى تتفق معها(الفينيقية) فى معظم مظاهر الصوت، و أصول المفردات والقواعد. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٩)

وعلي الرغم من تسميتها اللغة العبرية، فهى ليست لغة جميع العبريين، بل لغة فرع واحد من فروعهم، وهو فرع بنى إسرائيل. (ربحى، ١٩٦٣م: ٣٣)

وقد مرت العبرية بطورين:

الطور الأول: عصر قيام الدولة، حوالى القرن الثالث عشر ق.م، إلى أواخر القرن الرابع ق.م. وكانت العبرية فيها لغة حية، فى التخاطب، يتكلم بها العبريون ويكتبون، وهى العبرية القديمة.

ولهذا الطور مرحلتان:

المرحلة الأولى: منذ نشأتها إلى نفى بابل سنة ٥٨٦ ق.م. وتسمي، "العصر الذهبى للغة العبرية".

فبالنسبة للغة الخطاب، اتسع نفوذها وسلطانها، وبالنسبة للكتابة (ابتدأ من النصف الأخير من القرن التاسع ق.م. حتى أوائل القرن السادس ق.م.). دُوِّن بها معظم أسفار العهد القديم.

والمرحلة الثانية: تبدأ من نفى بابل سنة ٥٨٦ ق.م، إلى أواخر القرن الرابع ق.م، وتسمي، "المرحلة الفضية للغة العبرية".

فبالنسبة للغة التخاطب فى هذه المرحلة: فقد أخذ شأنها يضمحلُّ شيئا فشيئا، وبدأ النفوذ الآرامى يغزوها فلم يمكنهم المحافظة عليها فى لغة التخاطب؛ لأنَّ تيار الآرامية كان أقوي فتغلب علي العبرية، حتى حذفت من التخاطب نهائياً. وبالنسبة للتدوين ظلت العبرية مستخدمة، فكُتب بها بعض أسفار العهد القديم، كما دُوِّنت بها بعض الآثار الأدبية.

الطور الثانى: يبدأ منذ أواخر القرن الرابع ق. م، إلى الآن وله مرحلتان أيضاً:

المرحلة الأولى: منذ أواخر القرن الرابع ق.م، حتى أول العصور الوسطي، وتسمي العبرية –حينئذ– العبرية الربانية أو التلمودية. وفى هذه المدة لم تكن العبرية لغة محادثة، وإنَّما بقيت لغة كتابة، وتدوين فحسب.

والعبرية فى هذه المرحلة متاثرة كثيراً باللهجة الآرامية، وفيها آثارٌ من لغات الحثيين الهندية–الأوربية، (عَبُّودى، ١٩٩١م: ٣٤٣) وفيها كلمات كثيرة، من اليونانية، واللاتينية، والفارسية.

وقد كتبت بها مؤلفات فى مختلف الموضوعات، ظهرت بين أواخر القرن الأول الميلادى، ومنتصف القرن الثالث الميلادى.

ووضعت هذه الكتب فى مؤلف يسمَّي "المنشا"، ومعناه الكتاب الثانى، بعد الكتاب الأول، هو العهد القديم، ومنه يفيد اليهود فى حياتهم الدينية.

المرحلة الثانية: منذ العصور الوسطي إلى الآن، وفيها تسمَّي، "العبرية الحديثة".

وفى هذه المرحلة، تأثرت كثيراً باللغة العربية؛ لتأثر الكاتبين بها بالثقافة العربية، فى الشرق وفى الأندلس. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٢)

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر، قوى اتجاه اليهود، فى أنحاء العالم، إلى إحياء اللغة العبرية، واستخدامها فى ميادين الترجمة، والتأليف، والخطابة، والأدب، والصحافة. (وافى، لاتا: ٥٠)

وقد حاول اليهود الأوربيون، من الألمان، والانجليز، والفرنسيين، وغيرهم إعادة النطق العبرى- من جديد- ونقلوا عليها بعض صور النطق الأوربى فخفَّفوا النطق، ببعض أصوات الحلق، وأصوات الاطباق، فالصاد- مثلا-أصبحت قريبة من الصوت Z فى الألمانية، وبدا تأثرها كثيراً بلغة "اليديش" وهى لهجة ألمانية، كان يتكلم بها يهود وسط أوربا وشرقها، ودخل كثير من الألفاظ، والتراكيب الأجنبية، إلى العبرية. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٢-١١٣؛ أيضاً: وافى، لاتا: ٤٩؛ نولدكه، ١٩٦٤م: ٣٢-٤٦)

الفينيقية، وهى لغة الساحل السورى، والفلسطينى، واللبنانى. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٤)

وصلت إلينا اللغة الفينيقية، عن طريق نقوش قديمة، عثر عليها فى المواطن الأولى للفينقيين (صُور، صَيدا، جُبَيل Byblos ...)، وعُثر علي بعضها، فى مستعمراتهم، ومواطن نفوذهم، وخاصة فى جزر البحر الأبيض (قبرص وغيرها).

ووجه الشبه، بين اللغة التى دُوِّنت بها هذه النقوش، واللغة العبرية قوية جداً، فيما يتعلق بأصول الكلمات، أى الأصوات الساكنة التى تتالف منها أصول المفردات.

وقد استنبط العلماء من هذه النقوش، أنَّ مسافة الخلف بين الفينيقية والعبرية، فى أصوات المد، كانت أوسع من مسافة الخلف بينها فى الأصوات الساكنة. وكذلك الشأن، فيما يتعلق بالقواعد، وخاصة فى قواعد تركيب الجمل، فإنه يظهر منها، أنَّ الفينيقية تختلف عن العبرية، فى هذه الناحية اختلافاً غير يسير. فمن ذلك مثلا، أنها تستخدم فعلا مساعداً قبل الفعل المتحدث عنه؛ لتحديد زمنه وبيان استمراره، كما الشأن فى اللغة العربية (كان يضرب، كنا نضرب ... إلخ) وهذا الأسلوب لا نظير له فى اللغة العبرية. (وافى، لاتا: ٣٧)

ويظهر أنَّ الفينيقية كانت أطول عمراً من العبرية، ولكن من المقطوع، به أنها أخذت تتاثر بالآرامية منذ عهد بعيد، وأنَّه لم يأت القرن الأول، قبل الميلاد حتى كانت الآرامية، قد قضت عليها، كما قضت علي العبرية من قبل. (وافى، لاتا: ٣٩؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ٢١-٢٢)

ومن الفينيقية، تفرعت اللهجة المعروفة بالبونية "Puni"، التى تخص مدينة قرطاجنة [فى تونس]، والبلاد المتاخمة لها، والمستعمرات الفينيقية، فى حوض البحر المتوسط، بين القرنين التاسع والثانى ق.م. (قدورة، ١٩٩٩م: ٦١)

المؤابية Moabit، نسبة إلى بلاد مؤاب التى تقع فى الجنوب الشرقى من البحر الميت.

وتمثلها مجموعة هوامش مدونة، علي رسائل أكادية، أرسلها بعض أمراء فلسطين إلى حـكام مصر، ترجع نصوصها، إلى عهد امنحتب الثالث (١٤١٣-١٣٧٧ق.م)، وامنحتب الرابع (أحناتون) (١٣٧٧-١٣٥٨ق.م). (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٤)

وكذلـك يمثلها نقش (ميشـع)، مَلك مؤاب، وهو عبارة عـن نصب، عُثر عليه فى عام ١٨٦٨م، فى (ديبا) بأرض مؤاب. ويرجع تاريخه إلى سنة ٨٤٢ ق.م. (ولفنسون، لاتا: ٩٧)

ونقش ميشـع، يتفق فى معظم الخصائص، مع بقية اللهجات الكنعانية، (راجع ترجمة النقش: معن، ٢٠٠٠٢م: ١٤١)، وجعله بعض الباحثين، ممثلا للهجة مستقلة عن الفينيقية. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٤)

٢ – الآرامية Aramaic

تؤلف الآرامية مجموعة لغوية مهمة، واسـعة الانتشـار، تأسيسـاً علي الدراسـات اللغوية المقارنة. ويرجع أقدمها إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد. (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٥) واختلطت باللغات المجاورة لها فى الشرق أى العراق، والغرب أى سوريا وفلسطين. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٥) «وإنْ كانت أقرب إلى اللغة العبرية-الفينيقية، إلا أنها انفصلت عنها تمام الانفصال... وقد اتسـعت لغة الآراميين شيئا فشيئا حتى احتلت كل سوريا، حتى الأجزاء التى كانت محتلة قديما بأقوام غير ساميين.» (نولدكه، ١٩٦٤م: ٤٧)

ولها مرحلة قديمة تمتد إلى القرن الأول قبل الميلاد، ومرحلة لاحقة تتفرع فيها فرعين: غربية، شرقية.

اللغات الآرامية القديمة، وهى لغة أكثر النقوش القديمة المسـتمدة، من (دمشق وحماة وأرْبِد وآشور)، وتعود إلى ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد. كما تضم الآرامية الكلاسـيكية والامبرطورية، وهى اللغة التى اسـتعملت، فى الامبراطورية الآشـورية، والبابلية، والفارسـية (من القرن السـابع إلى الرابع قبل الميلاد)، واستمرت فروعٌ لها فى الحقبة التى تلت ذلك. اعتماداً علي النقوش، التى اكتشفت فى ما بين النهرين، وفارس، والهند الغربية، والأناضول، وشـبه الجزيرة العربية، ومصر. وتضم أيضاً، آرامية الكتاب المقدس الموجودة فى أجزاء من العهد القديم. (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٥)

الآرامية الغربية، وتضم الآرامية النبطية، وهى لغة الأنباط، وهم سكان عرب(أصلاً) أقاموا دولة فى سـلع "البتراء" فى بادية شـرق الأردن، وفى (بُصْـرَي) باقليم حوران فى

جنوب سـوريا (الحموى الرومى، لاتا: ٤٤١/١)، استمرت من القرن الأول قبل الميلاد، إلى القرن الثالث بعده. وسيطروا علي جنوب الشام، وشمال الجزيرة العربية (حول هجر/ مدائن صالح). (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٦)

وتضـم الآراميـة التدمرية، وهى لغة سـكان عرب (أصلاً) أقاموا دولـة فى "تَدْمُر" فى شـرق سـوريا، ازدهرت، بين القرنين الأول، قبل الميلاد، والثالـث بعده. والآرامية الفلسـطينية-اليهودية، وهى لغة الحديث فى فلسـطين، زمن المسيح(ع)، وخلال القرون المسـيحية الأولى. والآرامية السامرية، وهى لغة الترجوم السامرى (من المحتمل أنه من لغة القرن الرابع بعد الميلاد).

كما تضم الآرامية الفلسـطينية النصرانية، وهى اللغة التى اسـتعملها الملكيون، بين القرنين الخامس والثامن، بعد الميلاد، وقد كتبت بحروف سريانية.

وتضم أيضاً، بقايا الآرامية، يمكن سماعها اليوم فى قري (مَعْلُولَة، وجَبَعْدِين، وبَجْعا) فى جوار دمشق، وهى الآخذة بالانقراض. (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٧)

الآرامية الشرقية، وتضم اللغة السريانية، وهى آرامية قديمة، نشأت فى الإقليم الذى تقع فيه مدينة الرها "إديسـا" عنـد الرومان، واسمها الحالى "أورفا"، فى جنوب شـرق تركيـا، وكانت لغة "الرَّها"، قبل المسـيح(ع)، قد سميت آراميَّة، وبعد انتشـار النصرانية سُميَّـت بالسـريانيَّة، وقد امتدت، من القرن الثالث إلى الثالث عشـر بعـد الميلاد، وإنْ كانـت العربية حلَّت محلَّها، لغة التخاطب، فى أثناء الفتوح الإسـلامية، فى القرن الثامن. وتضـم أيضا، الآرامية البابلية، وهى لغة اليهـود البابليين، كما تضم المندائية، وهى لغة طائفة الصابئة، من المندائيين الذين برزوا فيما بين النهرين، وتأثروا بالنطق الآشـورى، وامتـدت كتاباتهم، من القرن الثالث إلى الثامن بعد الميلاد. كذلک ضمت بقايا الآرامية الشرقية، ربَّما لا تزال حتى اليوم، فى جوار بحيرة أرميا، فى طور عبدين، وقرب الموصل. (السابق، ١٩٩٣م: ٢٧-٢٨)

وقـد انتهت الآرامية، وانقرضت من لغة التخاطب، فى العراق بعد الفتح الإسـلامى فى القرن السابع الميلادى، وإنْ بقيت السريانية لغة كتابة، وأدب، ودين إلى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى. (السامرائى، ١٩٨٥م: ٨)

كذلک انقرضـت الآرامية، فى معظم مناطق سـوريا، ولبنان، وفلسـطين بعد الفتح

الإسلامى، وإنْ بقى الصراع الطويل بينها وبين العربية، فى بعض المناطق، حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادى، وانحرفت من جراء ذلك الآرامية، والعربية علي لسان أهلها. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٨)

ج – الساميَّة الجنوبية الغربية

وتضم اللغات الحبشية (الأثيوبية)، والعربية. أمَّا الحبشية، فهى لغة ذلك الشعب السامى، الذى خرج من جنوب الجزيرة العربية، فعَبرَ البحرَ الأحمر، عن طريق باب المندب إلى البلاد المقابلة لهم، وهى الحبشة، أو إثيوبيا كما أطلق عليه الرحالة اليونان، واختلط بأهلها من الحاميين. ويرجح أنَّ هذه الموجة من الساميين هاجرت، قبل المسيح، بوقت طويل. (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٣٤)

وأهم أقسام اللغات الحبشية السامية، هى: الجعزية، والامهرية، ولهجات أخري متفرعة من الجعزية كاللهجة التيجيرينية، أو التيجيرية، وكذلك الجوراجية، ولهجة مدينة هَرَرْ المتفرعة من الامهرية. وأقدم نصوص هذه اللغة، يرجع إلى سنة ٣٥٠ م. (بروكلمان، ١٩٧٧م: ٣٢، ٣٤)

وهذه الإلمامة التاريخية بفروع اللغات السامية، وبما ألت إليه تكشف للقارىء الخارطة التى استقر عليه حال هذه اللغات؛ إذ أنَّ بعضها إنْ لم يكن جلها، لم يعد أنْ يكون علي صورة لهجات متناثرة، فى بلدان أسيا وشمال افريقيا، قياساً بما تملكها العربية، من مساحة جغرافية، أو متكلمين.

أمَّا العربية، فتنقسم إلى قسمين هما: (العربية الجنوبية) و(العربية الشمالية).

فالأولى: تعرف عند اللغويين العرب(باللغة الحميرية)، أو اللغة اليمنية القديمة. وموطنها اليمن، وجنوبى الجزيرة العربية، ولهجاتها هى: المعينية، والسبئية، والحضرمية وقد وصلت إلينا منها الكثير من النقوش، والتى تتراوح مدتها بين القرن الثانى عشر قبل الميلاد، والقرن السادس الميلادى. (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٤؛ للتوسع: ظاظا، ١٩٩٩م: ١٠٦)

وتنقسم الثانية: وهى العربية الشمالية، إلى: العربية البائدة، والعربية الباقية.

فالعربية البائدة: هى عربية النقوش، التى دلت علي لهجات، كان يتكلم بها عشائر

عربية، تسكن شمالى الحجاز، وقد عرفت هذه النقوش باسم النقوش اللحيانية، بمنطقة العلا (دَدَن)، فى النصوص القديمة، والثمودية فى أقليم مدائن صالح والجوف، والصفوية فى جبل الصفا، وقد عثر عليها فى شمالى الجزيرة العربية، وشبه جزيرة سيناء، وجنوبى دمشق. (بيطار، ١٩٩٧م: ٩٤-٩٥)

ولتطرف هذه اللهجات فى الشمال، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية، وبعدها عن المراكز العربية الأصلية بنجد والحجاز، قبل الإسلام، فقدت كثيراً من مقوماتها، وصبغت بالصبغة الآرامية. وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام، ولم يصل منها إلا بعض النقوش.

ويري كثير من الدارسين، أنَّ النقوش المذكورة، ليست علي قدر كبير من الأهمية، لأنها ضحلة المادة ولاتشير إلى حقائق تاريخية واضحة، ولا تدل علي طوابع حضارية، فأكثرها يتناول أموراً شخصية كشراء جمل، ونزول فلان فى مكان ما.

ويؤكد العديد من الباحثين أنَّ أصحاب هذه النقوش، عرب ليس بينهم وبين القبائل العربية فروق كبيرة.

أمَّا لغة هذه النقوش، فحولها فروض متعدِّدة، فقد تكون عربية، أو كنعانية، أو آرامية، أو امتداداً للعربية الجنوبية، لكن الدراسات المبدئية الميدانية، للغة هذه النقوش، أثبتت أنَّها عربية أو قريبة من الأسلوب العربى.

وقد ظهر ذلك بعد حل رموز هذه النقوش بالعربية، فكان مفاد النقش الثمودى: «ذن-ل ق ض - ب ن ت -ع ب د - م ن ت، أو..ذين لقيض بنت عب- د مناة ...- هذا قبر لقيض بنت عبد مناة.» (بيطار، ١٩٩٧م: ٩٤-٩٥)

ومفاد النقش الصفوى، بعد قراءة النقش من الشمال إلى اليمين: «ل ب ر د ب ن ا ص ل ح ب ن ا ب ح ر و ش ت ى هـ د ر و ذ ب ح ف هـ ل ت س ل م ، أى - لبُرد بن صالح بن أبجر وشتَّى فى هذا المكان وذبح ذبيحة. يالله أقدم لك السلام.» (المصدر نفسه)

إنَّ الخصائص اللغوية، وأسماء الآلهة والمعبودات المعروفة، لدي أصحاب هذه النقوش تدل علي أنَّ كتَّابها كانوا من البيئة اللغوية الجاهلية. (وافى، لاتا: ٩٣؛ قدورة، ١٩٩٩م: ٦٦)

العربية الباقية

فهى لغة وسـط الجزيرة العربية وشمالها، وهى التى تُسمَّي باللغة العربية الفصحي. وقد كتب لها الخلود بسـبب نزول القرآن الكريم بها. فانتشـرت لذلک انتشاراً واسعاً، كما لم تنتشر أى لغة أخري من لغات العالم. (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٣٤؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ٣٠)

«والعربية الباقية، هى التى ينصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها، والتى تسـتخدم اليوم فى البلاد العربية، لغة أدب وكتابة وتأليف. وقد نشـأت هذه اللغة فى نجد والحجاز، ثم انتشـرت فى كثير من المناطق التى كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية، وانشعبت منها اللهجات التى يتكلم بها فى العصر الحديث، فى بلاد الحجاز ونجد واليمن، وما يتاخمها ويتصل بها من إمارات مسـتقلة، وفى فلسـطين، والأردن، ولبنان، والعراق، والكويـت، ومصر والسـودان، وبلاد المغرب العربى، ومالطة. وقـد وصلت إلينا العربية الباقيـة، عن طريق آثار العصر الجاهلى والقرآن والحديث، وآثار العصور الإسـلامية المختلفة.» (وافى، لاتا: ١٠٣)

ولم يعثر العلماء علي آثار كافية توضح حالتها الأولى، فالنصوص الشعرية المنسوبة إلى الجاهلية، تقدم لنا العربية ناضجة، لا أثر فيها للبدايات الأولى، كما أنَّ هذه النصوص، تقدم لنا الفن الشـعرى مكتملا، لا أثر فيه للمراحل التى قطعتها من قبل، فالمشـكلة هى ضياع طفولتين معا، هما طفولة العربية، وطفولة الشعر الجاهلى. (قدورة، ١٩٩٩م: ٧٤)

امتياز العربية

يري علماء اللغة، أنَّ العربية توفر لها عاملان، لم يتوافر لغيرها من اللغات الساميَّة: أحدهما، أنَّها نشـأت فى أقدم موطن للساميين، وثانيهما، أنَّ الموقع الجغرافى لهذا الموطن قد ساعد علي بقائها حيناً من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها، وبقى فيها من تراث هذا اللسـان ما تجرَّدَ منه أخواتها السـاميَّة، فتميزت عنها بفضل ذلک بخواص كثيرة يرجع أهمها إلى الأمورالثلاثة الآتية:

١ – أنهـا أكثـر أخواتهـا احتفاظاً بالأصوات السـاميَّة. فقد اشـتملت علي جميع الأصوات التى اشتملت عليها أخواتها الساميَّة، وزادت عليها بأصوات كثيرة لا وجود لها فى واحدة منها: الثاء والذال والغين والضاد والظاء. (أنيس، ١٩٧٣م: ٣٣)

٢ – أنها أوسع أخواتها جميعاً وأدقها فى قواعد النحو والصرف، فجميع القواعد التى تشتمل عليها اللغات الساميَّة الأخري توجد لها نظائر فى العربية، بينما تشتمل العربية علي قواعد كثيرة لا نظير لها فى واحدة منها، أو توجد فى بعضها فى صورة بدائية ناقصة.

ومن أبرزها خاصية الإعراب، والذى اشتهرت باسم قواعد الإعراب، والتى يتمثل معظمها فى أصوات مد قصيرة تلحق أواخر الكلمات؛ لتدلَّ علي وظيفة الكلمة فى العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة. وهذا النظام لا يوجد له نظير فى أية أخت من أخواتها الساميَّة، اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية فى العبرية والآرامية والحبشية.

٣ – أنها أوسع أخواتها ثروة فى أصول الكلمات والمفردات، وتزيد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامى الأول، ولا يوجد لها نظير فى أى أخت من أخواتها؛ هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات فى مختلف أنواع الكلمة: اسمها وفعله وحرفها، ومن المترادفات فى الأسماء والصفات والأفعال، ما لم يجتمع مثله للغة ساميَّة أخري، بل يندر وجود مثله فى لغة من لغات العالم. فقد جمع للأسد خمسمائة اسم، والثعبان مائتا اسم وكتب الفيروزآبادى كتاباً فى أسماء العسل فذكر له أكثر من ثمانين اسماً، وقرَّر أنه لم يستوعبها جميعها. (السيوطى، لاتا: ٣٢١/١– ١٤٠،٤٠٧)

ويري الفيروزآبادى أنه يوجد للسيف فى العربية ألف اسم علي الأقل، ويقرِّر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للداهية، ويوجد لكل من المطر، والريح، والنور، والظلام، والناقة، والحجر، والماء، والبئر، أسماء كثيرة، وكذلك الشأن فى الأوصاف: فلكل من الطويل، والقصير، والكريم، والبخيل، والشجاع، والجبان، فى اللغة العربية عشرات من الألفاظ. (وافى، لاتا، بتصرف: ١٥٥،١٦٢،٢٠٤؛ وللتوسع: عبد التواب، ١٩٩٩م، الباب الرابع: ٢٢٧)

ثم إنَّ الأصل الواحد فى اللغة العربية، يتوارد عليه مئات من المعانى، بدون أن يقتضى ذلك أكثر من تغيرات فى حركات أصواته الأصلية نفسها، مع زيادة بعض أصوات عليها أو بدون زيادة، وإن كل ذلك يجرى وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ، نظير ما نري فى الأصل (ع ل م): «عَلِم، عَلِمْنا ... أعلم، يَعلم، نَعلم ... اعْلمْ، اعلمى، عَلَّمَ، نُعلِّم، تَعلَّم، تَعالم، عُلِم، يُعلم، علمٌ، عَلَمٌ، علامة، علوم، أعلام، علامات، عالم، عليم، علَّامة، علماء، عالمون، متعلِّم، متعلَّم، مُعلِّم، معلوم، عالَم، عالَمون ...»

ولم تصل أية لغة سامية أخري فى هذه الناحية إلى هذا العدد من تنوع المفردات. ناهيك عما يتوارد علي الأصل الواحد، من معان أخري، عن طريق الاشتقاق الكبير والأكبر. (أمين، ٢٠٠٠م: ١-٣)

يقول وافى: «ولها خواص أخري كثيرة منها، طريقتها فى تصغير الأسماء، وقد ظهر للباحثين منذ أقدم عهدها وليست مستحدثة، بدليل وجودها فى أسماء الأمكنة والأشخاص: حنين، كليب ... ومن ذلك طريقة التعريف، فهى فى العربية (ال) فى أول الكلمة؛ وفى العبرية وفى بعض اللهجات العربية البائدة حرف (هـ) فى أول الكلمة؛ وكانت فى السبئية حرف نون فى آخر الكلمة، وفى السريانية حرف (آ) فى نهاية الكلمة. أمَّا الآشورية-البابلية والحبشية، فلا أداة للتعريف فيها مطلقاً. ومن خصائصها علامة الجمع: فهى فى العبرية حرف(يم) للمذكر، والواو والتاء للمؤنث، وفى الآرامية حرفا (ين)، فى حين أنه فى العربية يستخدم للدلالة علي جمع المذكر الواو والنون فى الرفع، والياء والنون فى النصب والجر، فى آخر الكلمة، وللدلالة علي جمع المؤنث السالم الألف والتاء فى آخر الكلمة، وللدلالة عليهما معاً صيغ جمع التكسير، وهى كثيرة.» (فقه اللغة، لاتا: ١٧)

وأمَّا نظام جمع التكسير، فلا يشارك اللغة العربية فيه بين أخواتها السامية إلا اليمنية القديمة والحبشية، غير أنَّ العربية قد توسعت فى استخدامه توسعاً كبيراً، حتى أصبح للمفرد الواحد فيها عدة جموع من هذا النوع. (نفسه: ١٦٢،٢١٠)

ولمَّا اكتملت لها بذلك أدوات التعبير عن أدق الأمور وألطف المعانى، شرفها الله تعالى بتنزيل كتابه العزيز، وصانها من الزوال والاندثار، فتيسرت لها بسبب ذلك، سبل البقاء والانتشار، فى أرجاء واسعة من الأرض، مالم يتيسر لأية لغة من لغات البشر.

النتيجة

لقد بدا من الأسطر السابقة أنَّ اللغات الساميَّة التى أطلقت حديثاً، علي مجموعة من اللغات، كالعربية والعبرية والسريانية، وغيرها، قد عرفها علماء العربية القدامي، وخبروا بعض خصائصها، والعلاقة بينها، ولم تكن كشفاً جديداً كلَّ الجدَّة. وإنَّما أراد المحدثون بهذه التسمية، تمييز اللغات التى تجمعها خصائص مشتركة، عن غيرها من الفصائل اللغوية الأخري، كالهندية-الأوربية، والطورانية، والكوشية، وغيرها.

وتبيَّن من البحث:

- أنَّ الحديث عن تقسيم الشعوب السامية لم يصل إلى رأى قاطع وموقف حاسم، تطمئن إليه النفس، ويعول عليه الفكر.

- أنَّ أغلب اللغات الساميَّة، لم يعد لها وجود واقعى، لا علي صعيد المحادثة والكتابة والتأليف، ولا علي صعيد القراءة والمطالعة، فقد بادت وأصبحت أثراً بعد عين، إلا القليل منها، كالعبرية، والسريانية، والحبشية، والأخيرتان تستخدمان فى نطاق ضيق جداً.

- كما تبيَّن من خلال البحث، صلة اللغات الساميَّة بالعربية، وعلاقة العربية بها، غير أنَّ العربية هى التى تستخدم اليوم علي نطاق واسع، وتمتاز بخصائص كثيرة عن أخواتها الساميَّة، فى الأصول والمفردات والقواعد، وبلغت فى ذلک درجة عالية من السعة والاكتمال.

- وأنَّ اللغة العربية، أكمل اللغات الساميَّة وأنضجها، وأقدرها علي التعبير عن مختلف القضايا. ممَّا شرفها بحمل معجز كلام البارى -عزَّوجلَّ- وحباها باحتضان حديث نبيه الخاتم (ص)؛ كى تنال بذاک التشريف، وهذا الحباء من السعة والمكانة، والبقاء والانتشار، فى آفاق رحيبة من البسيطة، ما لم تنله لغة أخري، علي وجه الأرض. وحسبها ذلک علواً وقدراً وفخراً.

- و مما تقدم يمكن أن نقرر بما لا شک فيه ولا ريب أنَّ اختيار العربية - أكمل اللغات- لإبلاغ أكمل الرسالات لم يكن عملاً اعتباطياً، ودون قصد من لدن الشارع الحكيم. وعملية الإبلاغ تتطلب الإبانة عن المقاصد، ومن أهم وسائل الإبانة لغة الخطاب. وفى العربية من مفردات الإبانة، وأساليبها، ما لم تملكها، بقية الساميَّات.

وحسبنا ما بيَّنا، وما نطقت به الآيات الآتية من كتاب الله العزيز: ﴿إِنَّ فى ذٰلِکَ لَذِكْري لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَي السَّمْعَ وَ هُوَ شَهيدٌ﴾ (ق: ٣٧) و﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزيلُ رَبِّ الْعالَمينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمينُ عَلي قَلْبِکَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥)

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأحمد، سامى سعيد. ١٩٧٥م. السومريون وتراثهم الحضارى. العراق: منشورات الجمعية التاريخية العراقية.

أمين، عبد الله. ٢٠٠٠م. الاشتقاق. ط٢. القاهرة: مكتبة الخانجى.

الأندلسى، ابن حزم، أبو محمد، على بن أحمد بن سعيد. ١٣٤٥ق. الإحكام فى أصول الأحكام. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

الأنطاكى، محمد. (لاتا). دراسات فى فقه اللغة. ط٤. بيروت: دار الشرق.

أنيس، إبراهيم. ١٩٧٣م. فى اللهجات العربية. ط٣. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ـــــ ١٩٧٥م. من أسرار العربية. ط٥. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

بروكلمان،كارل. ١٩٧٧م. فقه اللغات السامية. ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب. الرياض: جامعة الرياض.

بيطار، إلياس. ١٩٩٧م. الأبجدية الفينيقية والخط العربى. ط١. دمشق: دار المجد.

الحموى الرومى، الشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبدالله، ياقوت بن عبد الله. (لاتا). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.

ربحى،كمال. ١٩٦٣م. دروس اللغة العبرية. ط٣. دمشق: مطبعة جامعة.

السامرائى، إبراهيم. ١٩٨٥م. دراسات فى اللغتين السريانية والعربية. ط١. بيروت: دار الجيل.

السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن. (لاتا). المزهر فى علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: محمدأحمد جاد المولى وزميليه. لامك: دار إحياء الكتب العربية.

الصالح، صبحى. ١٩٧٦م. دراسات فى فقه اللغة. ط٦. بيروت: دار العلم الملايين.

طليمات، غازى مختار. ٢٠٠٠م. فى علم اللغة. ط٢. دمشق: دار طلاس.

ظاظا، حسن. ١٩٩٠م. الساميون ولغاتهم. ط٢. دمشق: دار القلم.

عبدالتواب، رمضان. ١٩٩٩م. فصول فى فقه اللغة العربية. ط٦. القاهرة: مكتبة الخانجى.

عبّودى، هنرى س. ١٩٩١م. معجم الحضارات السامية. طرابلس، لبنان: جروس برس.

فرستيغ،كيس. ٢٠٠٣م. اللغة العربية. ط١. ترجمة: محمد الشرقاوى. القاهرة: المجلس الأعلي للثقافة.

فيشر، فولفديتريش. ٢٠٠٢م. الأساس فى فقه اللغة العربية. ط١. ترجمة: سعيد حسن بحيرى. القاهرة: مؤسسة المختار.

قدورة، أحمد محمد. ١٩٩٩م. مدخل إلى فقه اللغة العربية. ط٢. دمشق: دار الفكر.

(الكتاب المقدس، أى كتب العهد القديم والعهد الجديد). ١٩٠٧م. بيروت: المطبعة الأمريكانية.

معن، مشتاق عباس. ٢٠٠٢م. المعجم المفصل فى مصطلحات فقه اللغة المقارن. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

موسكاتى، سبتينو. (لاتا). الحضارات السامية القديمة. ترجمة: السيد يعقوب بكر. القاهرة: دار الكتاب العربى.

موسكاتی، سباتینو، وآخرون. ١٩٩٣م. مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن. ط١. ترجمة: مهدی المخزومی، وعبد الجبار المطلبی. بیروت: عالم الکتب.

نولدکه، تیودور. ١٩٦٤م. اللغات السامية. ترجمة: رمضان عبد التواب. القاهرة: مکتبة دار النهضة العربية.

هلال، عبد الغفار حامد. ٢٠٠٤م. العربية خصائصها وسماتها. ط٥. القاهرة: مکتبة وهبة.

وافی، علی عبد الواحد. (لاتا). فقه اللغة. ط٦. القاهرة: دار نهضة مصر.

ولفنسون، أ (أبوذؤیب). (لاتا). تاریخ اللغات السامية. بیروت: دار القلم.